الاشتراكية العربية في الشعر المعاصر ..

الأستاذ علي الجبلاوي

لقد بلور الميثاق الوطنى الاهداف التى كانت نداءات مستمرة للنضال العربى فقال (ان عهودا طويلة من العذاب والامل بلورت فى نهاية المطاف أهداف النضال العربى ظاهرة واضحة صادقة فى تعبيرها عن الضمير الوطنى للامة وهى : الحرية والاشتراكية والوحدة بل ان طول المعاناة من اجل هذه الاهداف كاد يفصل مضمونها ويرسم حدودها . لقد اصبحت الحرية الآن تمنى حرية الوطن وحرية المواطن واصبحت الاشتراكية وسيلة وغاية هى الكفاية والعدل واصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الامر الطبيعى لامة واحدة مزقها أعداؤها ضد ارادتها وضد مصالحها والعمل السلمى من اجل تقريب يوم هذه الوحدة ثم الاجماع على قبولها تتويجا للدعوة والعمل معا) .

وقد رأينا الشعراء ينادون بهذه الاهداف : الحرية والاشتراكية والوحدة ، وهم فى احلك ساعات نضال الامة مع الاحتلال حتى اذا انحسر طغيانه وتقلص ظله راحوا يدعون الى تحطيم السيطرة الداخلية بالقضاء على الاقطاع والرجعية وتحكم رأس المال حتى ترفرف على المجتمع راية العدالة الاجتماعية، ثم اخذوا اخيرا يبشرون بالوحدة الكبرى فى ايمان لاحد له وبهذا عبر الشعراء المعاصرون عن واقع امتهم وما خاضته من معارك .

ولقد كانت الاشتراكية هى الهدف الثانى الذى حدد معالمه زعيم الاشتراكية العربية الرئيس المؤمن جمال عبد الناصر فى خطابه بساحة الجلاء بدمشق فى مارس عام ١٩٥٨ حين تحدث عن اهداف ثورة العرب فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ فقال : (هذه ايها الاخوة هى الثورة السياسية ثورة الحرية والثورة الاجتماعية ثورة المساواة وثورة العدل وثورة الشعب العربى الاجتماعية للقضاء على الظلم الاجتماعى) وجاء الميثاق الوطنى يوضح أهداف قوانين يوليو الثورية العظيمة عام ١٩٦١ فقال : (خلق نوع من التكافؤ الاقتصادى بين المواطنين يحقق العدل المشروع ويقضى على آثار احتكار الفرصة للقلة على حساب الكثرة ويساهم فى الوقت نفسه فى عملية تذويب الفوارق بين الطبقات بما يعزز احتمالات الصراع السلمى بينها) ثم قال : (ان وحدة الهدف لابد ان تكون شعار الوحدة العربية فى تقدمها من مرحلة الثورة السياسية الى الثورة الاجتماعية .

ولقد اخذ الشعر المعاصر يبدى اهتمامه المتزايد بأوضاع العرب القومية والاجتماعية فاخذ يعبر بقوة عن وجدانهم الجماعى ويعكس على صفحته الجميلة منازعهم المتعددة حية نابضة ويبشر فى روح سامية تتفهم جوهر الاديان وقيمها الروحية ـ برسالة الاشتراكية العربية للتخلص من فواجع الظلم الاجتماعى والتفاوت الطبقى الفاحش المزرى بكرامة الانسان .

واذا حاولنا ان نستقرىء ما نظمه الشعراء المعاصرون من قصائد فى موضوع الاشتراكية فاننا نلمح عنايتهم باستيحاء القيم الدينية وما بينها وبين الاشتراكية من وشائج حتى راينا الكثيرين منهم ياتى بذكرها مرتبطة بما نظمه فى تمجيد البطولات العربية ونزوعها الى المثل العليا وفى التحدث بعظمة الاجداد من خلفاء وقواد فاتحين .

وهذا امير الشعراء (شوقى) وهو رائد الشعراء فى هذا الدرب فهو حين يتمدح برسول الله عليه الصلاة والسلام الذى انتصرت على يديه بطولة الايمان والعقيدة الدينية وكان انتصاره تاريخا لايمان هذه الامة ووحدتها جميعا بعد فرقة ونشرها فى بقاع الارض تعلم الانسان الاخوة والمساواة وغير ذلك من التعاليم الخالدة فصفق الشعر لمبادئه السامية ـ وذكر شوقى منها الاشتراكية الغراء فقال :

الاشتراكيون انت امامهم
لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئدا وداووا طفرة
واخف من بعض الدواء الداء
انصفت اهل الفقر من اهل الغنى
فالكل فى حق الحياة سواء
فلو ان انسانا تخير ملة
ما اختار الا دينك الفقراء

وسار معه على هذا الدرب الشاعر (عبد المسيح الانطاكى) الذى كان متعصبا للعرب ويعد نفسه واحدا منهم لانه تربى على يد احد رواد العروبة السيد (عبد الرحمن الكواكبى) ولما لمسه من حسن معاملة العرب المسلمين لاهله ورعايتهم لجواره فنظم (القصيدة العلوية المباركة) وعدد أبياتها خمسة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون بيتا تناول فيها تاريخ الامام على رضى الله عنه وما جرى له مع الخلفاء ومهد لسيرة الامام بذكر محامد الاخلاق العربية وفيها يقول عن الاشتراكية

وامة خير ما تسمى به عرب
ان رام تمجيدها يوما مسميها

ومنذ نشأتها امتازت معيشتهـــا
عن البرية وحشيها وحضريهـا
بالاشتراكيه الكبرى فلا رتب
تثنى ذوى الجاه منها عن ادانيهـا
ولا ضخامة القـاب تميز من
بين الاعارب علويها وسفليهـا
وان احكامها شورى يصيغ لها
شيوخها اذ تنادى مستشاريهـا
والله أنزل في القرآن آيتها الغرا لتردع عنها مستبديها

وهذا هو الشاعر (الرصافى) لم يقو على ان يكظم غيظه ولا أن يصبر على ان تقدم الحكومة الى مجلس النواب لائحة لتخصيص رواتب لاصهار البيت العثمانى فنظم قصيدته التى أسماها (آل السلطنة) وفيها يقول فى ثورة على الاوضاع الفاسدة التى تتنافى مع الاشتراكية السمحة والحنيفية البيضاء :

تركوا السعى والتكسب فى الدنيا
وعاشـوا على الرعيـة عاله
ياكلون اللباب من كـد قـوم
اعوزتهم سخينة من نخـاله
فكأن الاله قد خلق النـاس
احيـا آل السـلاطين اله
تلك والله حالة يقشعر الحق
منهـا وتشمئز العـدالة
ليس هذا فى مذهب الاشتراكية
الا من الامـور المحـالة
وهو فى الملة الحنيفية البيضـاء
كفر بربنـا ذى الجلالة

وهو بهذا يشير الى ما ينادى به رئيسنا الملهم من ان الاشتراكية العربية هى شريعة الحق شريعة الله ولعل هذا هو ما جعل الشعراء السابقين يربطون بينها وبين تمجيد النبى الامين وخلفائه الراشدين .

وقد رأينا الشعراء المعاصرين يكافحون فى سبيل تأصيل المفاهيم الاشتراكية على انها منع الفـرد من استغلال رأس المال للاثراء على حساب الجماهير وبؤسهم وشقائهم وتحقيق التكافل الاجتماعى بين المواطنين بحيث تمحى مظاهر الفاقة والحرمان وتفاوت الثروات تفاوتا فاحشا يقترن فيه الجوع والفقر والمرض والمهانة بجانب الترف والرفاهة والانحلال الخلقى .

وهذا هو الشاعر الشهيد (هاشم الرفاعى) يصور هذه الاشتراكية فى قصيدته (الاصلاح الزراعى) الذى خلص البلاد من الاقطاع واستبداد راس المال فيقول :

البعث عم الكادحين بريفنـا
وبدا لهم بعد الممات نشـور
كم بالدم المهراق من ابـدانهم
ملكت ضياع جمة وقصـور
كم فاقد للقوت بات على الطوى
والرزق عند المالكين وفير
الغرس غرسهم وقد روى الثرى
عرق لهم فوق الجباه غـزير
عملوا له حتى بدت أثمـاره
ما بال من لم يشق فيه يجور
كم باللظى المشبوب فى اعماقهم
لسقوط الاستبداد فاض شعور

ويختتم قصيدته بقوله :

سـويت بين مواطن ومواطن
لم يبق فينـا خادم وأمـير

وجعل الشعر المعاصر المبادىء الاشتراكيـة من اهم ما عالجه فى معانيه ومضمونه ، وغنى عن البيان ان كل ما نظمه الشعراء فى ذلك انما صدر عن صميم واقعهم وعميق وجدان امتهم ، وهذا هو الشاعر (سليمان العيسى) الذى عاش صرخة فى اعماق قومه يصور كرامة العدالة الاجتماعية بالانتفاضة على الظلم الاجتماعى جعل ابناء وطنه فى اوضاع تعجز فيها عن العيش بمظهر كريم يحفظ لها انسانيتها الكريمة بلا مهانة ولا تعاسة ولا شقاء فهو يقول فى قصيدته (موكب النور) :

يا موكب النور لن نلوى اعنتنـا
فاهدر.منى الجيل فى جنبيك تضطرم
الكاس عاملنا الظـامى سيرشفها
والظل فلاحنا الضاحى سيقتسم
الناسجون بدمـع الشعب بردهم
والناحتون بعرى الكوخ قصرهم
والناصبون حدود الله مصيدة
ويهمس الفقر فى يأس .. اما تخموا
وان يشق عبيـد الارض طاعتهم
وان تحـول عن الاعنـاق رجلهم
ويرفعون قـلاع البغى شـاهقة
كل القلاع وان عـزت ستنهدم

ومن الاصوات الجهيرة التى ارتفعت انتصـارا للاشتراكية فى شعر رائع . صوت الشاعر (الزهاوى) الذى كان أول شاعر عراقى اتصل بالحيـاة وعالج مشكلات المجتمع وهو هنا يعبر عن مشاعر السخط التى تغلى فى صدور ابناء وطنه حقدا على الاقطاع الجائر والمظالم الاجتماعية البغيضة التى تتمثل فى قصيدته (سادة ورعاع) فيقول :

ان من كـدوا يزرعون البقـايا
اشبعوا غيرهم وباتوا جيـاعا
ربح المالـكون الارض غصبـا
ومضى كـد الزارعين ضيـاعا
ومن العدل ان يكون نتـاج الارض
بين المسـتثمرين مشـاعا
افريق يفـوز بالعيش رغـدا
وفـريق يـكابد الاوجاعا ؟
انمـا الدين وهـو اكبر هاد
لا يراعى الالوان والاوضـاعا
وكتـاب الله العظيم يسـاوى
بين من كانوا سـادة ورعاعا

ولا نستطيع فى ختام ما قدمناه من الشعر المعاصر الذى انبثق من صميم حياتنا القومية فتناول الاشتراكية كهدف نبيل لنضالنا العربى تمتد جذوره الى اعماق الاديان السماوية - ان نغفل هذه الابيات التى نظمها الشاعر (أحمد الكاشف) يبشر فيها بالاشتراكيـة فى اعقاب الحرب العالمية الاولى وبعد توقيع معاهدة الصلح فى فرساى عام ١٩١٩ وهى ضمن قصيدة عصماء تناول فيها الشاعر شتى المعانى السياسية والوطنية .

للاشتراكيـة العقبى اذا شملت
شتى الشعوب وجاراها المجـارونا
فلا الـكثيرون ملـكا للاقلينـا
ولا الاقـلون ملك للـكثيرينا
ولا نرى واحـدا ملاى خـزائنه
بالمقتنيـات والافا بجـوعونا
ولا نرى درة فى رأس محتـكم
تهفـو اليها قلوب المستظلينا

ولعل ما قدمناه من النماذج - فى الشعر المعاصر - تصور الاشتراكية التى يسعى الى رسم ملامحها الباعث الاصيل فى نفوس شعرائنا ليسهموا فى اقامة مجتمعنا على أساس اشتراكى سليم وفى تخليصه من الرواسب الكريهة التى خلفها الاستعمار والاقطاع والاستبداد وفساد الاخلاق فى العصور المتاخرة من تاريخنا .